آخر الأعمال. وفاة بطرس الأكبر

بلـغ بطـرس ذروة العظمة في آخر أيامـه، فهذا القيصر، والدبلوماسـي، والقائد العسـكري، وقائد الأسـطول، والمصلح، والمُشرع، الذي ذاع صيته، واشـتهرت أمجاده في بلاده وخارجهـا، ونعته معاصره، من رُوس وأجانب عن حـق وحقيق ببطـرس الأكبر، كان يسـتحق بالتمـام والكمال اللقب الـذي منحه إياه مجلس السـينات بعد انتهاء حرب الشـمال بنصر مؤزر، فإن نتائجهـا، ومـا أعقبهـا من نجاحـات في ميدان السياسـة الخارجيـة، وعلى الصعيد الدبلوماسـي، مثـل التحالف مع عدد من البلـدان، بما فيها خصمه السـابق السـويد التي أعـرب نـواب برلمانها عـن امتنانهـم لـه، وإعجابهم به (بموقفه فيما يخص الإبقاء على نظام الدولة والبرلمان في السويد)، والمنزلة الرفيعة التي احتلها الإمبراطور وروسيا التي قادها على المسرح الدولي وآلافاق المسـتقبلية الجريئـة البعيـدة النظر، الـتي رسمها في السياسـة الخارجية، كل ذلك وقائع لا تحتاج إلى برهان.

ومـع ذلـك لم يكـن بطـرس راضيًـا عـن كل شـيء، فالكثـير مما حـدث في الماضـي (حملة بـروت، والقطيعـة الفاجعة مع ابنـه، وذكريات «عصيـان» «الرعاع الوضعاء»، ومؤامرات ودسـائس صوفيـا البغيظة، وآل ميلوسلافسـكي، وأمور كثيرة أخرى) تقض مضجعه، فلا يعرف الهدوء، وحتـى في الوقـت الحاضر، في هـذه السـنوات الأخيرة بعد صلح نيشـتادت وحتى الممات، لم تهدأ نفسـه المتعبة المعذبة، فهي مفعمة بهموم ومشاغل لا نهاية لها، وبأفكار وقلق بخصوص التصرفات الشائنة وخيانة الأنصار، بل وحتى أقرب المقربين...

... كل شـيء في الطبيعـة، وبـين الناس يبـدو حتميـا حكيما، رغم فوضـى المصادفات، وكمـا يتبدل الليل والنهار، ويأتـي الموت بعد الحياة، وتأتـي الحياة بعده من جديـد، كذلك تتعاقب الأفـراح والأتراح، والضحك والبكاء، والنجاح والإخفاق، والسـعادة والتعاسـة، وتلاحـق بطرس دومًا تأملاتـه في الدوامة التي يقع الإنسـان فيها منذ الميلاد حتـى النفس الأخير،

ويتعذب لتلك التأملات التي تدفعه أحيانا إلى اليأس والقنوط، كانت هذه الدوامة تتقاذف بطرس السعيد التعيس فتلقي به من الفرحة إلى الحزن والاكتئاب على مدى حياته، التي لم تكن طويلة من حيث الزمن، لكنها من حيث امتلاؤها بالأفعال والأحداث الموفقة والفاشلة تعادل عدة حيوات بشرية ليست عادية.

ولا يسع المرء إلا أن يفكر و يحزر بحالة بطرس النفسانية في تلك السنوات، حيث أرهقه المرض العضال، وعذبه أشد عذاب (كان مصابًا باليوريميةـ التسمم الدموي البولي)، وانهال عليه المصير بضربات لا ترحم، فتتت بسرعة قواه التي استهلكها بسخاء في السنوات السابقة من الصراع والانفعال والتوتر الذي يفوق تحمل البشر، بديهي أنه استمر في قيادة الإمبراطورية الشاسعة بهمة ونشاط، وتجلى ذلك من جديد في الريشة والسيف، أي في وضع المراسيم والتشريعات وتنظيم الحملة الجديدة (بحر الخزر)، والمشاركة فيها، كما تجلى في المباحثات الدبلوماسية، وتوقيع المعاهدات، وفي إدارة السينات والسينودس المقدس، والهيئات والمتصرفيات، وفي الاهتمام العملي النشيط، الموجه دوما بشؤون الصناعة والتجارة والأكاديمية والمدارس، وبناء القصور والمستودعات، وأمور كثيرة أخرى، وتجلى ذلك، أخيرًا في التعامل والتخاطب مع أناس من مختلف الفئات الاجتماعية، ابتداء من الفيلدمارشالات، وحتى الأسطوات والجنود، حيث يتوجهون بإشرافه وبإرادته القوية، لتنفيذ الخطط والمهمات المكرسة لإعلاء مجد روسيا وعزتها وكرامتها.

وكانت عنده أعمال محببة إلى نفسه في المنزل وخارجه، في العاصمة في روسيا، لخير الوطن كما يفهمه الإمبراطور، وعندما اقتربت نهاية حرب الشمال صار بطرس- حتى آخر أيامه- يقضي مزيدًا من الوقت في العاصمة، في «فردوسه»، ووليدته المحببة بطرسبورغ التي بدأت آنذاك- بفضل جهوده وعنايته بالأساس- تتحول إلى المدينة التي نعتت فيما بعد بـ«تدمر الشمال»، كان بطرس كعادته يستيقظ في الصباح الباكر،

في حوالي الخامسة، ويستمع إلى تقرير سكرتيره الأول ماكاروف، ويتناول الفطور، وفي السادسة صباحا يرى أهالي العاصمة عربته ذات العجلتين في حوض بناء السفن، أو قرب بنايه في طور الإنشاء، أو عند مدخل السينات، أوقرب باب منزل أحد كبار الموظفين، بهذه الصورة يصرف الوقت حتى الظهر، وفي الواحدة بعد الظهر يتناول طعام الغداء الرُوسي البسيط (الحساء والعصيدة واللحم والمتبلات)، ومن بين الثمار غير الرُوسية يحب الليمون، ولم يكن يتناول الأسماك والحلويات، وبعد الغذاء، حسب العادة الرُوسية، استجمام يستغرق ساعتين تقريبا، ويمضي الوقت بعد الظهر في مراجعة تقارير الإداريين والسفراء والقادة العسكريين، ووضع وتحرير المراسيم والإيعازات، والتوجيهات والتقييدات، وغيرها بعدد كبير.

وفي المساء، حسب المناسبات أو المزاج، تجرى لقاءات مع الضيوف والمحاسيب، وفيها من كل بد ولائم ولهو مرح، وأحيانًا ينزوي القيصر في قصره الصيفي ليختلي بعائلته، وهو يهوى ذلك كثيرا، وأخيرا يقضي بعض الوقت في ورشة الخراطة المحببة إليه، حيث توجد مجموعة كبيرة من المخارط والأزاميل والمواد في جو هادئ يمكّن بطرس من الاستجمام والانفراد، ويقول الخراط الممتاز نارتوف الذي تقابل مع القيصر مرارًا: إن أحدًا لا يدخل عليه الورشة بدون استدعاء، «لكي يبقى هذا المكان على الأقل هادئا لصاحبه»، وأعجب شخص آخر من معاصري بطرس، من الدبلوماسيين، بمهارة القيصر الخراط، فقال: « إنه لا يقل مهارة عن الخراط الممتاز، حتى صار يجيد خراطة الصور النصفية والمنحوتات».

وكان بطرس يعمل على المخرطة «بجد واجتهاد، وكأنه يعمل ليكسب النقود كي يعيش عليها»، ولا تزال محفوظة في متحف الارميتاج حتى الأن مصنوعات الخراطة من عمل بطرس، مثل علب السعوط والأنواط وغيرها من الحلي، وقد شارك في صنع ثريا من العاج من ثلاثة طوابق بـ ٢٦نتوءا، وكتب عليها بالرُوسية واللاتينية:

ـ من صنع يدي بطرس الأكبر إمبراطور وقيصر عموم روسيا ١٧٢٣.

ودهش معاصرو بطرس، ومنهم الأجانب، لقدرته الهائلة على العمل، وكثرة الأشغال المتنوعة التي مارسها، وعندما كانوا يسألونه عنها يقول مازحًا إنها توفر المزيد من الصحة وطول العمر، وكان يضع جداول أسبوعية للأشغال، وقد ضم أحد تلك الجداول (لعام ١٧٢١) ما يلي: وضع توجيهات بناء السفن (الأثنين ـ الخميس)، جلسة السينات (الجمعة)، تحرير «تاريخ الحرب السويدية» (السبت، صباحا)، الشؤون الدبلوماسية (الأحد، صباحا). وفي جدول آخر (كانون الثاني ـ يناير ١٧٢٤)، نجده يخصص للسينات مساء الأثنين وصباح الثلاثاء، ولدعاوى المحاكم الأربعاء والخميس، ولبناء السفن صباح الجمعة، وفي جدول ثالث (تشرين الثاني ـ نوفمبر ١٧٢٤، قبل وفاته بأقل من ثلاثة أشهر)، ركز جل اهتمامه على السينات، وعلى النظر في مختلف القضايا الملحة وغير الملحة.

وقد اهتم كثيرا ببناء بطرسبورغ وتزيينها وتزويدها، بكل ما هو نافع وضروري وممتع، وبإلحاح منه ظهرت في العاصمة بنايات حجرية ليس للعبادة فقط، بل ومنازل وقصور مزينة بالرسوم والمنحوتات، مثل قصره الصيفي، وقصر مينشيكوف، ومباني الهيئات العامة وغيرها، وأنشئت في عهده المتنزهات الجميلة، والجادات العريضة، والساحات، وأقيمت المصابيح على أعمدة في الشوارع، وأرغم أهالي العاصمة على ارتداء ثياب جديدة قصيرة وأحذية، بدلًا من الثياب القديمة الطويلة الأذيال والأخفاف.

ولم يبق من البناء الخشبي الأول للمدينة، سوى منزل بطرس نفسه على الضفة اليمنى لنهر نيفا، وبدلًا من المنازل الخشبية بنيت دور طينية، ثم مساكن حجرية، وفي ١٧١١ أنجز بناء القصر الصيفي للقيصر وعائلته، وفي تلك الفترة بلغ عدد سكان المدينة ٨ آلاف شخص، يقيمون في ٧٥٠ـ ٨٠٠ منزل، ومع تواصل الانتصارات في القتال ضد السويد، وبعد انتقال شرق البلطيق إلى روسيا، أبدى بطرس اهتماما متزايدا ببناء وإعمار المدينة، وفي عام ١٧١٦ تعاقد مع المعماري الفرنسي المعروف ليبلون الذي وضع مشروع المخطط العام للمدينة، واستند المشروع إلى فكرة ما يسمى بالمدينة

المنتظمة، أي الشوارع والقنوات المستقيمة، والساحات الفسيحة، والمباني الحكومية، والكنائس وقصور الوجهاء، ومنازل العامة والفلكات والأسواق، بحيث تبنى على جانبي الشوارع بارتفاع متساو، وكانت مواصفات المخطط، مثلا، تستوجب تغيير كل الموجودات في جزيرة فاسيليفسكي.

وكان بطرس في باريس آنذاك، ودرس هناك الرسوم التخطيطية، ومخططات المباني المتماثلة التي أرسلها ليبلون من بطرسبورغ، وعندما عاد القيصر إلى العاصمة التقى بالمعماري، وسأله:

ـ ماذا سنفعل؟

ـ نهدم المنازل الحالية، ونبني منازل جديدة، ونطمر القنوات و نحفر غيرها.

فكرت في ذلك، لكنه يتطلب أمولًا كثيرة.

ولم يصادق القيصر على المخطط، وظلت المدينة تبنى كالسابق، كما تمليه الطبيعة والمناخ وخيال صاحب البناء والمعماري، لكن بطرس كان يتابع تشييد المدينة على الدوام، ليكون منتظما وليس عشوائيا، وعلى أية حال تم في آخر أيامه تعبيد شوارع العاصمة بالحجر، حيث جرى تبليط كلا جانبي الشارع الملاصقين للمباني السكنية بشكل خط عرضه متر ونصف أو متران، (وظلت قارعة الطريق غير مبلطة)، وفي عام ١٧٢١، أعد ونصب حوالي ٦٠٠ فانوس في الشوارع، فتائلها تشتعل بزيت القنب.

وكانت هذه المستحدثات وغيرها نتيجة للجهود الحثيثة التي بذلها بطرس والأشخاص الذين عينهم لهذا الغرض، ومنهم انطوان ديفير البرتغالي الأصل الذي كان في حينه بحارا في سفنية أحد التجار، وقد التقاه بطرس في هولندة عام ١٦٩٧، فأعجبه بمهارته وحذقه، فعينه القيصر في خدمة مينشيكوف في البداية ثم مراسلًا في خدمة القيصر نفسه، وتجدر الإشارة إلى أن الكثيرين عملوا مراسلين عند بطرس الأكبر، وبرز بينهم فيما بعد رجال مشهورون ائتمنهم وقربهم إليه، (مثل مينشيكوف)،

وحدث شيء من هذا القبيل لانطون ديفير، فهذا البحار الشاطر استطاع أن يحظى بإعجاب شقيقة مينشيكوف، وهي عانس دميمة، ولم يبق أمام هذا الأخير غير الموافقة على زواج شقيقته من مراسل القيصر، وكان لذلك سببان، فالشقيقة تنتظر مولودًا، والقيصر بارك زواج محسوبه، وأقيمت حفلة الزفاف، وارتقى المراسل سلم المراتب، وفي ٢٧ آيار (مايو) ١٧١٨، تلى على أعضاء السينات مرسوم جديد من بطرس الأكبر:

ـ أيها السادة أعضاء السينات! بغية إحلال نظام أفضل في هذه المدينة، قررنا إناطة وظيفة مدير الشرطة العام بمرافقنا الأول ديفير، ورسمنا البنود التي ينفذ بموجبها المهمة الموكلة إليه.

وصار المرافق الأول ومدير الشرطة العام البرتغالي الأصل، يدير بناء بطرسبوغ وفقًا لتوجيهات تفصيلية من القيصر، وبالإضافة الى تشييد المباني، راعى واضع التوجيهات الملتزم بالدقة البالغة أمورًا كثيرة، مثل تقوية شواطيء النهر ومجاريه، ونظافة الشوارع، وترتيب الأسواق، وجودة وأسعار الأطعمة المعروضة للبيع، وتدابير إطفاء الحريق، ومكافحة القمار، ومعاقبة لصوص الليل والماجنين، (كان الخفراء يجوبون الشوارع في الليل وهم يطقطقون بالخشخيشات, ومن الحادية عشرة مساء حتى الصباح تغلق العوارض على مداخل المدينة، ولا يسمح بالسير في الشوارع إلا للعسكريين والوجهاء والأطباء والمولدات والقساوسة والموظفين الذاهبين لأغراض الخدمة، على أن يحملوا معهم فوانيس).

وبجهود مديرية الشُرطة، وعمل العمال تم إعمار بطرسبورغ فغدت جميلة وازدادت بهاء، وكانت جادة نيفسكي الممتدة من حوض الأميرالية حتى دير الإسكندر نيفسكي، تحظى بإعجاب المشاهدين من عهد بطرس، لا سيما الأجانب، فقد كانوا يمتعون الأنظار بهذا الشارع المعبد الطويل، والأشجار المنتصبة بثلاث أو أربع صفوف على جانبيه، ويقول بيرخغولتس إن هذه الجادة الجميلة النظيفة «ذات منظر رائع لم أر مثله في أي مكان»، وحول الحديقة الصيفية في جانب الإميرالية شقت القنوات،

وجرى تعديل مجاري الجداول حتى غدت مستقيمة، وأنشئت كورنيشات خشبية وشُيدت جسور، وكان القيصر يعاقب المذنبين بشدة على كل تقصير، وذات مرة تلقى ديفير حصته من ضربات هراوة القيصر التربوية (بسبب عطل الجسر على نهر مويكا)، وقال له القيصر:

ـ سجعلك هذا تتذكر بشكل أفضل، ضرورة رعاية الشوارع والجسور لتكون بالكيفية اللائقة.

كان بطرس غالبًا ما يتردد على مبنى الإميرالية (مركز صناعة السفن في بطرسبورغ)، وهو مبنى ضخم مستطيل غير كامل من جانبه الرابع المشكوف على نهر نيفا، وفيه حوض بناء السُفن المطوق من جهة النهر بسد محصن باستحكامات ومدافع، وفي منشآت الإميرالية وحواليها كل ما هو ضروري لبناء السفن، وفي عشرينات القرن الثَّامن عشر بنيت هنا زهاء مئة من مختلف السفن، وغدت الإميرالية مؤسسة كبيرة معقدة، وصارت بمثابة القلعة على نهر نيفا، وعمل فيها حوالي عشرة آلاف شخص.

وفي مكان قصر الشتاء الحالي كان ينتصب منزل الأميرال أبراكسين المكون من ثلاثة طوابق، وبعده يأتي منزل المدعي العام ياغوجينسكي، والفريق البحري كرويس، وقصر بطرس الشتوي، وأبعد منه يأتي قصره الصيفي الذي لا يختلف بشيء عن المنازل الأخرى للناس المتوسطي الحال، وفيه الحديقة الصيفية التي كان بطرس يحبها كثيرًا، ويهتم بها ويزينها على غرار متنزه فرساي.

وفي الحديقة المذكورة مماش ذات تخطيط جيد وأشجار مكورة ومكعبة وهرمية الشكل، وبرك ونافورات وتماثيل بالحجم الكامل، ومزهريات وتماثيل نصفية، وأعمدة وغير ذلك من الروائع، كان القيصر يحب الاستجمام هنا لوحده أو يتمشى مع الضيوف، والكثير هنا يثير إعجاب أولئك الضيوف، وخصوصًا تمثال أفروديت العائد إلى القرن الثاني الميلادي والذي جُلب من إيطاليا، وكذلك المغارة الملَّبسة بالصدف من روسيا وإيطاليا وهولندة، وكرة عائدة لسلالة غوتوربي صنعت في عام ١٦٦٤،

وجُلبت من هولشتين، والحديقة مزينة كذلك بتماثيل حول موضوعات من حكايات أيسوب، نحتت بإيعاز من بطرس لموعظة الزوار.

وبعد ذلك، على امتداد نهر نيفا، تأتي وراء الحديقة الصيفية قاعات كيكين التي صودرت بعد إعدام هذا الأخير لارتباطه بقضية الأمير الكسي، وقد خصصت لمتحف الغرائب ولأول مكتبة عامة في روسيا، وقد جمعت واقتنيت تحف المتحف داخل البلاد وخارجها، والقيصر مطلع عليها جيدًا، فقد اعتاد أن يتحدث عنها ويعرضها على المقربين إليه أو على الأجانب، فيؤدي دور الدليل، وقد أوعز بجمع كل ما هو «قديم جدا وغير عادي»، وإرساله إلى بطرسبورغ، وقد اشترى في الخارج، مثلا، المجموعة التشريحية التي جمعها العالم ريوش في امستردام طوال خمسين عاما، وأهدى له الأجانب تحفًا كثيرة لمعرفتهم بحبه للمعرفة، وثقتهم بأن تلك التحف النادرة ستبقى محفوظة من أجل العلم والأحفاد، وكانت تتوارد من جميع الأنحاء النوادر والعجائب والغرائب والكائنات الشاذة والحاجيات القديمة والمدافع وغيرها، ولم يبخل القيصر بالمال على هذه المشتريات رغم ما تعود عليه من تقتير.

وفي منتصف عشرينات القرن الثّامن عشر، غدا متحف الغرائب أغنى متحف من هذا النوع في أوربا.

وجمعوا في المكتبة العامة كتبًا من مختلف الأنحاء، وجلبت إليها محتويات مكتبة الصيدلة من موسكو، ومكتبة دوق كورلياندیا، ومكتبتا الأمير الكسي، والبارون شافيروف بعد مصادرتهما، وإلخ، وفي عام ١٧٢٥، بلغت موجودات المكتبة العامة ١١ ألف مجلد.

وقال القيصر عن هدف جمع الغرائب والكتب بوضوح لا لبس فيه:

ـ أريد للناس أن يروا ويتعلموا.

وابتداء من عام ١٧١٩، افتتحت أبواب متحف الغرائب والمكتبة العامة للجميع، زد على ذلك أن دخول المتحف كان بدون تذاكر، وقد رفض

القيصر رفضا باتا اقتراح المدعي العام ياغوجينسكي ببيع تذاكر الدخول، والأكثر من ذلك أن القيصر يأمر بتقديم القهوة وغيرها لزوار المتحف، وخصص لهذا الغرض ٤٠٠ روبل في العام.

وتقع جنب قاعات كيكين المؤسسة التي عمل فيها بطرس مرارًا، ونعني دار السباكة، وفيها ورشات الخراطة والبرادة والنجارة وعربات المدافع وغيرها، وهنا صب بطرس شخصيا مدافع المورتر والهوتزر، وقبالة دار السباكة، على الضفة الثانية من نهر نيفا، تقع قلعة بتروبافلوفسكايا، وفيها كاتدرائية بطرس وبولص التي يعلوها برج رفيع، وفي جزيرة فاسيليفسكي شيدت بنايات حجرية للهيئة الثانية عشرة، والسوق التجاري، ومتحف الغرائب من ثلاثة طوابق.

وعلى الضفة اليمنى لنهر نيفا، يقع الميناء الذي كان مكتظًا بسفن كبيرة وصغيرة لا تحصى، تحمل أعلام مختلف البلدان، وفي الأعياد تأتي إلى هنا، إلى داخل المدينة، سفن أسطول البلطيق، مفخرة بطرس الأكبر، وفي مطلع عام ١٧٢٤، كان هذا الأسطول يضم ٣٢ بارجة كبيرة، وأكثر من ١٠٠ سفينة أخرى أصغر حجمًا، ولعبت إرادة بطرس الحديدية دورًا هائلاً في ذلك، كما في كثير غيره، وغدا الأسطول الرُوسي هو الأقوى بين أساطيل البلطيق.

وصارت بطرسبورغ الميناء الرئيس في البلاد، بدلًا من أرخا نجلسك، وقبل عام من وفاة بطرس الأكبر وصلت الى هذا الميناء ١٨٠ سفينة أجنبية, بينما وصلت إلى أخا نجلسك ٥٠ سفينة فقط، وغدت بطرسبورغ مركزًا كبيرًا لنقل البضائع من أوربا إلى روسيا وبالعكس، فإلى أوربا تُنقل الجلود والسمن والكتان وتيل القنب والحبوب والجريش، وحديد الاورال، وفراء سيبيريا، والأنسجة القطنية، وقماش القنب, وإلى روسيا تُنقل من أوربا الأنسجة الصوفية والحريرية والزجاج والأصباغ والمشروبات والبن، وكان لروسيا, بفضل جهود بطرس لدرجة كبيرة, ميزان تجاري إيجابي, حيث كانت تصدر أكثر مما تستورد، وصارت المانوفاتورات والحرفيون

في نهاية الربع الأول من القرن الثامن عشر، ينتجون الكثيرمما كان في السابق يستورد من البلدان الأخرى،(مثل المعادن، والمصنوعات المعدنية، والورق وكثير غيرها).

وكان ذلك كله مدعاة للفخر والاعتزاز، وكان بطرس دون شك يفتخر به، وحدث الشيء ذاته في إعداد الأخصائيين في جميع الميادين، ابتداء من إدارة الدولة، وقيادة الجيش والأسطول وانتهاء بالأسطوات في أحواض بناء السفن، وفي مصانع الأورال، فقد أعد بطرس مئات وآلافا من هؤلاء الأخصائيين الموهوبين الذين يحتاجهم البلد، ونشأت حوله كوكبة من الرجال الأماجد ممن تربوا على يده، وقد حققوا الكثير لروسيا, لكنهم لم ينسوا أنفسهم بالطبع، فقد أجزل لهم القيصر العطاء بالمناصب والمكافآت والضياع والأقنان، صحيح أن القيصر كان يطالبهم بخدمة جيدة, وكان يغضب أحيانا، ويطرد المقصرين ويلجأ إلى الهراوة، فينهال بها في ضرب مبرح، وكانوا «يوفرون» له مبررات كثيرة للتذمر، وخصوصًا أول المقربين إلي مينشيكوف، الذي كان يفرحه و يحزنه في الوقت ذاته، وخصوصًا في السنوات الأخيرة.

مينشيكوف رجل مخلص وشجاع للغاية، وهو يتحدر من عامة الناس، لكنه غدا الشخصية الثانية تقريبًا في الدولة، وصار فليدمارشالا وأميرًا ساميا، ومتصرفا لبطرسبورغ، ورئيسًا للهيئة العسكرية، ومالكًا لأموال طائلة من ضياع وأقنان، وما إلى ذلك.

وأخذ مينشيكوف يستخدم حسن معاملة القيصر له في أغراضه الشخصية ليرضي أطماعه وجشعه الفظيع، وبمر الزمن ازداد جشعه فعرف به بطرس (ليس بكل شيء طبعا)، في البداية أخذ بطرس يلومه، ثم صار يقرعه، ويكتب إليه رسائل غاضبة شديدة اللهجة، وأحيانًا يهتاج فيضربه بالعصا.

لكن شفاعة يكاترينا وتوبة مينشيكوف ومثابرته جعلت غضب القيصر يخف، فحلت الرحمة محله، لا سيما وأن الأمير مينشيكوف

يجيد الخدمة، ويبدي آيات البسالة، ويتزلف إلى القيصر، وقد استفاد بطرس مرارًا من حزم وبسالة معاونة في صالح القضية العامة، وخصوصًا في المواقف الحرجة عندما يتطلب العمل مجازفة وسرعة وجرأة، وحصل مثل ذلك مرارًا، في معركة بولتافا ومعركة بيريفولوتشنايا، وفي بولونيا وبوميرانيا، وأسهم مينشيكوف بقسط كبير في بناء وحماية «فردوس» بطرس، حيث بذل طاقات كبيرة، وأبدى حسن تدبير، إلا أن أبرز معاون لبطرس، مينشيكوف هذا، كان أول مختلس لأموال الدولة الروسية، وفي السنوات الأخيرة فترت علاقة بطرس به، ولم يعد يثق به مثلما في سالف الزمان.

وكان أشياع بطرس الآخرون يسببون له أذى ومتاعب أيضًا، والمثال على ذلك قضية شافيروف الذي رفض ـ كعضو في السينات (في عام ١٧٢٢) ـ أن يتغاضى عن تصرفات مينشيكوف، حيث طلب منه ذلك المدعي العام الأقدم في السينات سكورنياكوف بيساريف، الذي قام مقام المدعي العام ياغوجينسكي لغيابه عن العاصمة، كما لم يكن الإمبراطور في العاصمة آنذاك، فقد كان على رأس حملة بحر الخزر، لكن شافيروف نفسه تورط في قضية تعتبر أسبابها تافهة في معايير ذاك الزمان، فقد تشفع لمنح أخيه راتبًا أكبر من المقرر حسب الملاك، وكان الكثيرون يرتكبون مثل هذه الخطايا «التافهة»، لكن سكورنياكوف بيساريف الذي شعر بالإهانة، وحرضه آخرون، ومن بينهم على ما يبدو مينشيكوف نفسه، تذرع بهذه الحجة، وثارت في السينات فضيحة رافقها صخب وصياح.

وفي الحادي والثلاثين من تشرين الأول (أكتوبر) من العام نفسه، نوقشت في السينات مسألة عمل مصلحة البريد التي يديرها شافيروف، ووفقًا للأحكام المتبعة لا يجوز له أن يحضر الجلسة لأنه هو موضوع المناقشة، ولذا طلب منه بيساريف أن يغادر القاعة، إلا أن شافيروف السريع الانفعال اعتبر هذه الكلمات إهانة من شخص يضمر له العداء من زمان، ورفض مغادرة القاعة.

فـأورد بيسـاريف مقتطفا مـن مرسـوم القيصر بهذا الخصـوص، لكـن شافيروف أصر على موقفه.

واحتـدم الجـدل بينهمـا، فاتهـم شـافيروف بيسـاريف بالسـرقة، والتزم مينشـيكوف وغولوفكين جانب المدعي العام الأقدم، لكـن شـافيروف لم يصـغ إلى أقوالهمـا، وأكد أنهم جميعًا أعداء له، ولـذا لا يحق لهم الكلام في هذا الموضوع.

واحتجاجًـا على ذلك غادر مينشـيكوف وغولوفكين وبروس القاعة، والتحق بهم بيسـاريف، قائلًا لأعضاء السينات الذين كانوا على استعداد لمناقشة المسألة بغياب أولئك الثلاثة: « أنا ذاهب أيضًا، فقد اتهمني شافيروف بالسرقة».

وانفضت الجلسـة، وبعد يوم من ذلك اقترح مينشيكوف إلغاء عضوية شـافيروف في السـينات، وطالما القيصر هو الذي يعين أعضاء السينات فقد ظلوا ينتظرون عودته.

لكـن الأعمال يجب أن تسـير رغـم الخلافـات، وبعد أسـبوعين افتتح المدعي العام الأقدم جلسة السينات قائلًا:

ـ لا بد من الاستماع إلى تفاصيل القضية.

فرد عليه شافيروف منفعلا:

ـ ارحمنا يا رب، كيف استمع إليه؟

وعندما تكلم مينشيكوف قاطعة شافيروف، وفضح تصرفاته، وأشار إلى غضب القيصر عليه بسببها.

وبعـث الخصمان بيسـاريف وشـافيروف تقريريـن إلى الإمبراطور اتهما فيهمـا بعضهمـا البعـض، وعندما عاد بطـرس أمر بتشـكيل محكمة عليـا، وبنتيجة التحقيق اتضح أن شـافيروف مذنب، فاعترف بذنبه صراحة أمام القيصر، فلا يجوز تعيين راتب لأخيه لا يسـتحقه، وكان يجب عليه

أن يغادر السينات عندما نظر في قضية الدائرة التي يشرف عليها، وصدر الحكم بإعدام شافيروف، وفي ١٥ آذار (مارس) ١٧٢٣، جاءوا بالمحكوم في زحافه إلى منصة الإعدام في كريملين موسكو، وتلى الحكم بحضور جمهور كبير، وقال أحد شهود العيان إن المحكوم «يمم وجهه شطر الكنيسة حسب العادات الروسية، ورسم شارة الصليب عدة مرات، ثم ركع ووضع رأسه على النطع، لكن معاوني الجلاد سحبوا قدميه من الخلف فاضطر إلى الانبطاح على بطنه المترهل»، ورفع الجلاد الفأس وهبط بها على النطع دون أن تمس رقبة شافيروف، وبلغ مسامعه، بعد أن ودع الدنيا، مرسوم القيصر الذي يقضي باستبدال الإعدام بالنفي إلى سيبيريا.

وبدلًا من سيبيريا سرعان ما عينوا له مدينة نوفغورود، حيث أقام شافيروف مع عائلته حتى وفاة بطرس، وأصدر الإمبراطور المستاء من تصرفه مرسومًا في تشرين الثاني (نوفمبر) ١٧٢٣، قضى باعتقال أي عضو في السينات يبدي تعنتا مثل شافيروف.

ونظرا «لوقاحة» سكورنياكوف بيساريف، صادر بطرس من البداية ضياعه وخفض رتبته إلى موظف عادي، ثم عينه مفتشًا أكبر لقناة المياه من بحيرة لادوغا، وبسبب سوء خدمته في القناة لم يوافق الإمبراطور على إعادة رتبته.

وهكذا اضطر القيصر إلى مفارقة رجال قديرين، بل وموهوبين، وكانت الأسباب متعددة، مثل التجاوزات في السلطة واختلاس أموال الدولة والارتشاء، والاستهانة بالخدمة، وسوء السلوك وهلم جرا، والبعض لم يعد من المقربين إلى القيصر، مثل مينشيكوف، والبعض الآخر فارق الحياة بميته طبيعية (غولوفين، وروموداونوفسكي، وشيريميتيف وغيرهم)، أو على منصة الإعدام مثل الأمير غاغارين الذي اختلس أموالا طائلة في سيبيريا، أو المفتش الأقدم نيستيروف.

وفي السنوات الأخيرة كان من المقربين إلى بطرس سكرتيره ماكاروف، الذي مارس صياغة المراسيم والرسائل والتقارير والبلاغات والعرائض

وغيرها من الوثائق، وكان تأثيره على القيصر يزداد، واستمرت خدمته من عام ١٧٠٧ حتى وفاة القيصر، واستفاد من مساعدته الكثيرون حتى أكبر الموظفين والقادة العسكريين، كان رجلًا جادًا هادئًا حافظ على كرامته ونزاهته أمدًا طويلًا، لكنه لم يصمد للغواية، فصار يتقبل الهدايا، ففترت علاقة القيصر لدرجة ما بمعاونة المخلص.

واشتهرت على نطاق واسع معاملة القيصر الطيبة لمراسليه الذين كان يختارهم من كل المراتب الاجتماعية، فهم دوما جنب القيصر، وهو يعاملهم ببساطة وبدون تكلف، ويكلفهم بمختلف الأعمال، بما فيها أعمال مهمة للغاية، ويعينهم في مناصب رفيعة جدًا في بعض الأحيان، ويضعهم في منزلة أعلى من الآخرين؛ استنادًا إلى مواهبهم وفطنتهم وحماسهم، وغير ذلك من الخصال الحميدة.

وكان الأجانب يستغربون من تصرف القيصر مع عامة الناس حيث يقربهم، ويصطحبهم في روسيا وفي رحلاته إلى الخارج، ففي البيت مثلًا يلعب الشطرنج مع القس بيتكا.

وسافر معه هذا القس إلى الخارج في ١٧١٦ـ ١٧١٧، وأثناء وضع ميثاق «مجمع المرح والسكر والعربدة» السالف الذكر، استفاد بطرس من معارف القس بيتكا في الإنشاد والمراتب الكنسية، ثم إن مدير جوقة البلاط القيصري بيليايف شماس من المنشدين، وهو مثل بيتكا غالبا ما يتردد على بيت القيصر، ويتجول معه في أوربا، أما الأمير يوري شاخوفسكوي الذي نعته أعضاء «مجمع المرح والسكر والعربدة» بالأرشمندريت غيديون، فهو من أعز الناس على القيصر، فهو مهرج ذكي، واسع الاطلاع، وشجاع، لاذع الكلمة، يثير غضب الوجهاء الذين يفضح تصرفاتهم ويسخر منها، وخصوصًا الرشوة والاختلاس. وكان بطرس يقدره رفيع التقدير ويصطحبه، في حله وترحاله، وغالبا ما يدعوه إلى بيته، وكان موقف الأمير كوراكين منه مزدوجا، حيث يعتبره ذكيا واسع الاطلاع، لكنه سكير عربيد يسيئ إلى الجميع.

كان شاخوفسكوي بمثابة المدعي العام الشخصي للقيصر، يراقب كل شيء، ويتحدث عن كل الأمور بصراحة وفطنة وحدة، وأعجب القيصر بذلك، فصارت ملاحظاته الشخصية ومراقبته للناس ولطبيعتهم وعيوبهم ونقاط ضعفهم، تحظى بتأكيدات في أقوال وتصرفات الأمير المهرج الحادة الخشنة.

وقد احتفظ بطرس حتى النهاية بموقف طيب من الأميرال أبراكسين، وقبل وفاته بقليل حاول بطرس إقناعه، وهو المريض بالامتناع عن السفر إلى موسكو:

ـ لا ترحل، وإلا ستهلك... خذ قسطا من الراحة، وعندما يرى الطبيب أنه لا خطر عليك يمكنك أن ترحل.

كان لدى بطرس كل ما تتطلبه الحياة الهانئة: أسرة تتفهمه، وزوجة تحرص عليه، وأطفال يحبونه، وبيت فيه الراحة والدفء والحنان والاستقرار، لكنه في هذا المجال أيضًا تلقى ضربة هي الأخيرة، وكانت قاسية جدًا دون ريب: كان زوجته و«رفيقة حياته» يكاترينا، أمله الأخير من حيث الوئام الروحي، ومن حيث مخططات المستقبل، وكما هو شأن مينشيكوف، غدت هذه الغسالة التي انتشلها من الحضيض إنسانا هو بأمس الحاجة إليه، وأشار الأشخاص الذين راقبوهما من عام لآخر إلى أن مارتا سكافرونسكايا، يكاترينا، صارت بسهولة وبشكل طبيعي تمامًا صديقة ورفيقة وزوجة لإنسان فذ عظيم، وكانت تجيد التصرف كإمبراطورة، كعقلية لإمبراطور روسيا، وكانت تفعل ذلك أيضا بشكل طبيعي لا أثر فيه للتظاهر والتكلف والجمود، ولم تكن تنسى ماضيها، حيث ذكرت مرارًا أنها كانت غسالة ثياب، ولا تستحي من ذلك مثل بعض العصاميين الآخرين الذين يصعرون خدودهم للناس حالما يرتقون من الأحوال إلى الجبال، لم تكن عقلية القيصر من هذا النوع من البشر، فهي تتصرف ببساطة وبلا تكلف، ولا تنقصها الطيبة والأريحية، فتعمد إلى إنقاذ هذا أو ذاك من غضبة القيصر، كانت هي الوحيدة التي

تستطيع أن تهدئ بطرس وتخفف من غضبه وهياجه، اللذين لا يندر أن يستوليا عليه بشدة، فهي تتفوه بكلمة طيبة، وتمسد شعره، وتضغط رأسه بصمت إلى صدرها، حتى يخف غضب القيصر، ويتنفس الجميع الصعداء.

وبعد وفاة ولديه أصدر بطرس مرسومًا حول ولاية العهد (١٧٢٢)، وبدلا من «العادة السيئة» لانتقال العرش عفويًا إلى الابن الأكبر، استحدث نظام جديد يعين بموجبه «القيصر الحاكم» نفسه وفقا لإرادته أي شخص يريده ليكون وليا للعهد، وفيما بعد يمكنه أن يغير رأيه ويعين وليا جديدا، وبعد الاستماع إلى المرسوم أقسم كبار موظفي الإمبراطورية الروسية بإيعاز من القيصر على تنفيذ إرادته المطلقة.

فمن الذين يعينه وليا للعهد يا ترى؟ هل يعين أبناءه؟ لم يبق منهم سوى بنتين، الكبرى، آنا، مخطوبة لدوق هولشتين، والصغرى غير متزوجة، ولم تبلغ الخامسة عشرة، ولذا تردد بطرس في تسليم دفة الدولة إليهما، أما حفيده، ابن الكسي، الأمير الخائن والمعادي لأعمال ومطامح بطرس، فهو يخشى أن يسير على سنة أبيه، ولم يبق هناك سوى زوجته الحبيبة العزيزة على قلبه، ونصيرته التي رافقته في حله وترحاله، صحيح أنها، بعد حياة مشتركة مع بطرس استمرت عشرين عاما، لم تكتسب قدرة على تصريف شؤون الدولة، ومع ذلك فهي دوما جنبه وجنب أشياعه، ويمكنها بعده أن تترأس الدولة وتواصل نهجه بمساعدتهم (فمهما كانت خصالهم فهم يجيدون تصريف الأمور)، ولعل الإمبراطور قد فكر على هذه الصورة مرارا وتكرارا، وهو يتوقع قرب نهايته، وهذا هو ما جعله يصدر في عام ١٧٢٣، بيانه الذي برر فيه لقبها كإمبراطورة، وامتدحها كنصيرة له تحملت مثله مرارا متاعب الرحلات والحملات، وهذا هو أيضًا سبب تتويجها في موسكو في احتفال رائع مهيب، في مطلع ربيع العام التالي، وحضر الاحتفال كل الوجهاء في حلة السهرة، حتى الإمبراطور ارتدى تلك الحلة وهو نادرًا ما يرتديها، فقد حضر في قفطان أزرق مطرز بالفضة، وجوارب حريرية حمراء، وقبعة بيضاء، ووضع التاج على رأس يكاترينا، وفي اليوم

التالي هنأها بوصفه أحد الجنرالات، وتكرمت الإمبراطورة يكاترينا على بيوتر تولستوي بلقب الكونت، فقد خدم القيصر وروسيا سنين طويلة بولاء وإخلاص.

وفي ذلك العام اشتد عليه المرض بسرعة، لكنه تمالك نفسه، ولم يستسلم، وظل يعمل كالسابق، ويتعالج أحيانا، وفي شباط (فبراير)، سافر إلى مصيف العلاج الطبيعي في كاريليا، ورافقته يكاترينا، وبعد احتفالات التتويج في موسكو سافر من جديد للعلاج بالمياه المعدنية التي اكتشفت قرب مصانع أوغودسكيه، وفي ٧ حزيران (يونيو)، قال القيصر لزوجته الإمبراطورة:

ـ هذه المياه، والحمد لله تفعل مفعولها، وتزيد الأدرار لا أقل من مياه أولونيتس، لكن شهيتي ليست جيدة.

ولم يطق صبرًا، فجاء إلى الورشة التي تصنع فيها الصفائح الحديدية، وعمل بنفسه في صنع كمية منها، ودمغ المصنوعات باسمه، واستفسر عن أجرة العمل وحسب ما يستحقه، وطالب بأن يسددوا له ما كسب، واشترى بتلك النقود جزمة وتباهى كثيرًا بها لأنها من عرق الجبين.

وعاد إلى العاصمة، ولم يزايله المرض، وقلل من أعماله، لكن طباعه دفعته إلى المشاركة في إنزال فرقاطة إلى الماء في أواخر آب (أغسطس)، ثم تجاهل نصيحة الأطباء وتوجه إلى شليسيلبورغ للمشاركة في الاحتفالات السنوية بذكرى تحريرها، وزار مصانع أولونيتس، والتقط المطرقة من جديد، ومارس الحدادة، كما زار ستارايا روسَا، حيث يعد الأهالي ملح الطعام، وتفقد قناة لادوغا التي يعمل في شقها زهاء ٢٠ ألفا من الفلاحين وأهالي المدن.

وعاد مريضًا إلى بطرسبورغ في أواخر تشرين الأول (أكتوبر)، وآنذاك اندلع حريق جزيرة فاسيليفسكي، فأسرع بطرس راكبًا إلى هناك، فهو يحب إطفاء الحرائق منذ الطفولة، وفي ٥ تشرين الثاني (نوفمبر) حضر

حفلة زفاف أحد الخبازين الألمان، وسرعان ما تلقى تلك الضربة المفاجئة الفظيعة التي عجلت في مماته دون شك، والقضية مرتبطة «برفيقة حياته» يكاترينا، ولا أحد يعرف ما حدث على وجه التحديد، فحسب الظاهر كانت الزوجة محتشمة، وعندما عاد القيصر إلى البيت لم يجدها، فقد ارتحلت، وكتب إليها يقول: «حال ما أدخل القصر، أشعر برغبة في الفرار منه، فهو موحش بغيابك»، وبعد ذلك تبدلت الأمور بسرعة، ففي ٩ تشرين الثاني (نوفمبر)، اعتقل فجأة وليم مونس البالغ الثلاثين من العمر، وهو شقيق محبوبة القيصر السابقة آنا مونس، كان مؤتمن يكاترينا المهندم الشاب هذا يدير مكتب ضياعها، وقال بيرخهولتس الآنف الذكر مندهشا، شأنه شأن الكثيرين ممن استغربوا لتطور الأحداث بهذه الصورة:

ـ لقد أدهش هذا الاعتقال الجميع بمباغتته، لا سيما وأنه كان في المساء السابق لذلك اليوم يتناول طعام العشاء في البلاط، وقد تشرف بالتحدث مع الإمبراطور طويلًا دون أن يشعر بما يشير إلى غضبته.

إلا أن حجب الأسرار تتبدد، فقد سرت إشعاعات وأقاويل عن سلوك الإمبراطورة المستهجن، وعلاقاتها الغرامية مع الشاب المعتقل، ولم يستمر التحقيق مع الرجل المنحوس أسبوعًا، فقطع الجلاد عنقه بحكم المحكمة، لاستلامه الرشاوي من المحتاجين الذين يراجعون الإمبراطورة، وسوء استخدام ثقتها، واختلاس أموال الدولة، بهذه الصورة جاءت الصيغة الرسمية التي لم يقتنع بها كثيرون.

ولم يرد اسم يكاترينا طبعا بالارتباط بالاعتقال والتحقيق والإعدام، فإن زوجة القيصر منزهة عن الشبهات! وظلت محافظة على هدوئها، ورباطة جأشها، لكنها حاولت في الحقيقة، مثلما فعلت كثيرا في السابق، أن تقنع بطرس بالرأفة بالسجين، إلا أن الإمبراطور كان في سورة من الغضب الأعمى، فحطم مرآة جميلة وثمينة جدا، وقال عبارة كبيرة الدلالة:

ـ هذه حلية رائعة تزين قصري، وقد حطمتها بإراداتي.

فأجابت يكاترينا يتحفظ كعادتها في مثل هذه الأحوال:

ـ وهل غدا قصرك بذلك أفضل؟

لكنها فهمت التلميح الشفاف الواضح، وهي تعرف طباع زوجها وقسوته، ولذا أذعنت ورافقته عندما أمرها بالذهاب للتفرج على رأس محسوبها المقطوع.

وانتهى الحادث عند هذا الحد، لكن العلاقات الودية الطيبة التي كانت تعم القصر انتهت، ولم يعد لها وجود، وما كان بوسع ذلك ألا يؤثر على الإمبراطور، فقد لازم الفراش أكثر الوقت، والمرض يعذبه، وعندما يتلاشى الألم، أو يخف ينهض ويمضي لقضاء بعض الشؤون، وفي تشرين الثاني (نوفمبر) حضر حفل قران وزفاف ابنته آنّا من دوق هولشتين، وفي ١٨ كانون الأول (ديسمبر)، احتفل بعيد ميلاد ابنته الصغرى يليزافيتا، وبعد يومين حضر مراسيم انتخاب «القيصر ـ الأب الروحي» الجديد بعد وفاة بوتورلين، واهتم بأمور أخرى أهم، حيث وضع وحرر مراسيم وتوجيهات، بما فيها توجيه إلى فيتوس بيرينغ مدير البعثة التي توجهت إلى كامتشانكا بعد وفاة الإمبراطور، وأسرع كثيرًا في انجاز هذا التوجيه، الذي ترتبط به خطط جريئة تحدث عنها إلى أبراكسين:

ـ تدهور صحتي جعلني ألازم المنزل، وقد تذكرت قبل أيام ما كنت أفكر فيه من زمان، وأعاقتني عنه أشغال أخرى، وأعني الطريق عبر البحر المتجمد إلى الصين والهند.

وفي السنوات الأخيرة، اهتم بطرس الأكبر كثيرًا بالعمل مع سكرتير مكتبه ماكاروف في وضع «تاريخ حرب الشمال»، كان يقرأ النص ويصححه، ويغير صياغاته طول الوقت، وظل يمارس هذا العمل حتى وفاته.

وقد قضى نحبه في آلام مبرحة فظيعة، في الثامن والعشرين من كانون الثاني (يناير) ١٧٢٥، وقبل أن تعاجله المنية ظل عدة أيام يصرخ من شدة

الألم، ثم خارت قواه، فأخذ يئن جثمانه أربعين يومًا دون أن يوارى التراب، وكانت زوجته المفجوعة يكاترينا تبكيه وتندب عليه، ولم يتسن الوقت لبطرس الأكبر أن يعينها رسميا وريثة له (وربما لم يعد راغبا في ذلك)، وقبيل الوفاة تمن أن يخط على الورق بيد واهنة:

«سلموا كل شيء...» – لمن؟ لا أحد يعلم...

«... يا ويلنا! ما هذا؟ إلى أين انحدرنا، يا أبناء روسيا؟ ماذا نفعل؟ إننا ندفن بطرس العظيم» هتف أثناء دفن الإمبراطوري أحد المقربين إليه.

دفن بطرس الأكبر في ٣ آذار (مارس ١٧٢٥)، في كاثدرائية بطرس وبولص، في بطرسبورغ، واكتنفه تراب أرض البلطيق، التي كان يحلم بها منذ الفتوة، وكرس حياته كلها للنضال في سبيلها.

كلمـة أخيــرة

عندما يفارق الحياة رجل فذ عظيم، يشعر المحيطون به فراغ كبير جدًا في بعـض الأحيـان، إذ يختفي مركـز الجذب الذي يتحلـق حوله الجميع، و يحـرك الجميع، وفي آخر المطـاف يتوقف تقييم الأسـلاف له على عظمة شخصيته وسـعة الإنجازات المرتطبة بها، كانت شخصية بطرس عظيمة لدرجة جعلت غيابة يؤثر، ليس فقط في الذين التقوه بهذه المناسبة أو تلك، وارتبطوا به على نحو أو آخر.

بديهي أن الحياة تسـير في مجراها، وعلى أثر وفاة بطرس الأكبر، أُعلن عـن تنصيب يكاترينا إمبراطورة لروسـيا، فقد كان من اللازم سـد فراغ السـلطة بأسـرع ما يمكن، واسـتمرت، كما هي العادة من قديم الزمان، المخططات والحسـابات والهفوات السياسـية القديمة والجديدة في البلاط، ولاحـت بـوادر انقلابـات القصر، وتبـدل الحكام، وتعسـف الألمـان الذين تقاطـروا على روسـيا (في عهد آنا ايفانوفنا وبـيرون) كالزبل من كيس مثقـوب، على حـد تعبـير المـؤرخ كلوتشيفسـكي، وقد خلـف بطرس الأكـبر حكام نعتهم بوشـكين بدقة وصواب بالورثـة التافهين لعملاق الشمال.

شـخصية بطرس شخصية عملاقة حقا، فإن أنصاره وأشياعه الميتمين، وأقـرب أحفـاده الذيـن واصلوا قضيتـه بنحو أو بآخـر، والساسـة والمؤرخين والفلاسـفة والشـعراء والكتـاب والصحفيـين البعيديـن عـن عصـره، يعـودون دومـا إلى شـخصية وأعمـال إمبراطـور روسـيا الأول، و«غالبا ما تقتصر فلسـفة تاريخنا بالكامل علـى تقييم إصلاحات بطرس»، كما يقول كلوتشيفسكي.

إن عصر بطرس، والتحويلات التي أجراها، وقسطه الشخصي في بناء الدولة، وتعزيز مواقعها، وزيادة أمجاد روسيا، لابد وأن تحظى باهتمام متواصل، فرغم كل النواقص والأخطاء والتشويهات، الخطيرة جدا في بعض الأحيان، تقدمت روسيا في عهد بطرس بشكل ملحوظ على طريق التطور، وتقلص تخلفها عن البلدان المتقدمة في أوربا الغربية، وحققت روسيا إنجازات كبيرة جدا، في صناعة ـ ٢٠٠ مانوفاتورة جديدة في مختلف فروع الإنتاج، وتحقق تقدم مماثل في ما يسمى بالتراكم الأولي، الذي تسارع فيما بعد وهيأ المقدمات لأسلوب الإنتاج الرأسمالي، صحيح أن تراكم الرساميل الذي جرى في روسيا في ظل القنانة (التي اختفت من بريطانيا وفرنسا، مثلا، قبل قرن من ذلك)، كان بطيئا، ومع ذلك فإن الأموال تراكمت في جيوب الأفراد (من الضرائب التي ازدادت ثلاثة أمثال من عام ١٦٨٠ حتى عام ١٧٢٤، ومن سك النقود، واحتكار الملح والخمور والتبغ وغيرها)، وجرى توظيف تلك الأموال في المؤسسات الإنتاجية، وغيرها من الأعمال.

واعتمدت الدولة مبالغ كبيرة للبناء الصناعي، وقدمت القروض لأرباب العمل وأصحاب المعامل، وفي الوقت ذاته انفصل عدد متزايد من الناس عن الأرض، وعن البيئة المعتادة، فاصبحوا شغيلة في المانوفاتورات، ونشأت نواة ما قبل البروليتاريا في روسيا.

وقد شجع بطرس الأكبر التنمية الاقتصادية في البلاد بقدر كبير، وكان يدرك تمامًا أن التخلف ينطوي على عواقب وخيمة، كالتبعية للبلدان المتطورة والمتقدمة، وضياع الاستقلال الوطني في آخر المطاف، كانت الدولة التي رعاها وعززها دولة بيروقراطية، ذات حكم مطلق، لطبقة النبلاء المسيطرة والبرجوازية الوليدة، وكانت على حد تعبير لينين إمبراطورية الموظفين والنبلاء، ذات الجيش والأسطول القويين، وجهاز الدولة والهيئات في رأي بطرس، والنبلاء تؤدي مهماتها في الدفاع عن الوطن، وقمع احتجاجات الناس بصورة مقبولة تمامًا، وبالإضافة الى حل

المهمات الطبقية(حماية مصالح النبلاء، والتجار، وتعزيز مواقعهم، واخماد الانتفاضات الشعبية)، طرح بطرس وجهازه ونفذا مهمات وطنية عامة، ومن هذه الناحية لا بد من احترام خدمته الشخصية «لمصلحة الدولة»، و «الصالح العام»، فالتحويلات التي اجراها, وبعضها استمرار واكمال لما بدأ قبله, قد جعلت روسيا بلدًا اقوى بكثير، واكثر تطورًا وتحضرًا, وادخلتها مجتمع الدول العالمية الكبرى, مع انها لم تستطع أن تخلصها من التخلف تماما، ولم يكن ذلك ممكنا في ظل نظام القنانة، والاقطاع الذي كان بطرس من مفكرية ومؤيديه المتحمسين، كان بطرس الأكبر ابن عصره, وقد تلقى تربيته على أيدي كبار الاقطاعيين, فلم يتمكن من تحقيق شئ أكثر مما حقق، لكن ما حققه خلال حياته غير الطويلة(مع أن فترة حكمه طويلة جدًا)، في تطوير الاقتصاد والتشريعات، وبناء الجيش والأسطول والسياسة الخارجية والفن العسكري والثقافة والمعيشة، تقبلته روسيا، وتبنته بامتنان، وظلت تتقنه وتواصله على امتداد قرنين من الزمان تقريبًا، وقد أدرج بعض من ذلك، وهو غير قليل، في تراثنا الوطني إلى الأبد, مثل الأراضى المسترجعة، وتأمين منافذ البحار والمحيطات، وبناء المدن، وشق القنوات، ومنجزات الحضارة الصناعية والحياة الروحية، والمآثر البطولية في العمل ، وفي سوح القتال، وأخيرًا في الوعي الوطني الأشم الصادق لشعوب روسيا.

بطرس الأكبر شخصية معقدة متناقضة, كما تأكد القارئ الكريم ولا بد، وتلك هى سمة العصر الذي ولد فيه، فقد تلقى من أبيه وجده ومن الساسة والعاملين الذين سبقوه سجايا الطبع، ونمط الأفعال، والنظرة إلى العالم ومخططات المستقبل، لكنه في الوقت ذاته شخصية فريدة لها طابعها الخاص في كل شئ, وهذا بالذات ما جعله يحطم التقاليد والعادات والأعراف الجامدة، رغم احترامه للأجداد، وخبرتهم التي انتفع منها, ومكنه من أغناء تلك الخبرة القديمة بأفكار وانجازات جديدة أصلية خاصة به, واقتباس ما هو ضروري، ونافع من الشعوب الأخرى.

كان القيصر الشغيل والأسطة, كما نعتوه احيانًا, في عجلة من أمره على الدوام، كل ما قام به طول حياته، قام به بسرعة فائقة: ألعاب مارس، والإبحار بالقوارب, وحملتا آزوف و«البعثة الكبرى», والسنوات الأولى المتوترة جدًا من حرب الشمال (استمرا تلك السنوات العصيبة المحمومة حتى النصر في بولتافا)، والإصلاحات المتعاقبة، والمفاوضات الدبلوماسية، والرحلات إلى الخارج، وحلق اللحى، واللهو الذي هو المجون بعنيه في غالب الأحيان، في «مجمع المرح والسكر والعربدة»، وتعذيب وإعدام «العصاة» و«اللصوص» و«الأشرار» (هذه هي النعوت التي أطلقها هو وأنصاره على الذين انتفضوا احتجاجًا على ظروف العمل التي لا تطاق، والضرائب الفاحشة والعنف)، وقد تجلت في ذلك كله، وكثير غيره، نفسية بطرس وطبيعته بالكامل، فهو يؤدي كل الأعمال في منتهى التوتر، وكأنما يخشى أن يتخلف ويفوت شيئًا هامًا وضروريًا.

وكان معاصروه يدركون بأن أحدًا لا يستطيع أن يضاهي بطرس من حيث مستوى معارفه، وكثرة مهاراته التقنية العملية التي جمعها بفضل حبه الشديد للمعرفة، وتوقه الذي لا ينضب إلى الاستيعاب والفهم، وبفضل الفطنة الفائقة، والمواهب العبقرية التي فطر عليها، ومنذ أن كان الإمبراطور على قيد الحياة، وبعد مماته، كانت الألسن تتناقل والأقلام تسجل «طرائفه» (أطلقت هذه التسمية على روايات الأحداث الشهيرة ذات العبر والدروس التي جرت لبعض الناس). وفيما بعد صدر كتاب «طرائف من حياة وأعمال إمبراطور روسيا بطرس الأكبر» بصياغات متعددة.

وأكد شهود العيان لأبناء الأجيال اللاحقة أن القيصر الرُوسي يتميز من جهة بالبساطة في المعاملة والتواضع والقناعة في الحياة المعيشية. ولم تكن المنازل والقصور التي بنيت له كبيرة الحجم، وكانت تخلو من الأبهة. فهو طبقا للذوق الرُوسي القديم لا يطيق السقوف العالية، وقد أوعز ببناء سقوف أخرى أوطأ من تلك حيثما وجدت، فكات تبنى من الخشب أو تصنع من القماش الخشن. وكان طيب القلب بالفطرة، فتراه

يلاطف النجار والحداد والبحار، فضلا عن الوجيه النبيه، وكان يتقاسم معهم المأوى والمأكل و يحضر حفلات تعميد أطفالهم. ولم يكن يحب الطقوس والمراسيم، وبذلك آثار دهشة المراقبين الأجانب، وخصوصا ممثلي الأرستقراطية.ز ولكن التعود على السلطة وتزلف الحاشية من جهة أخرى يوضحان (ولا يبرران طبعا) بعض خصائص بطرس مثل الغلظة والقساوة والاستهتار والاستهانة بالكرامة البشرية والتعسف في السياسة والحياة المعيشية. وقد أدرك وأكد مرارا أنه حاكم مطلق وكل ما يفعله ويقوله غير خاضع لحكم البشر، فهو مسؤول أمام الله وحده عن كل شيء، عن الصالح والطالح. وهو واثق تماما من أن كل ما يصدر عنه إنما يصدر لصالح الدولة والشعب. ولكن هل أدرك بطرس أن جهوده تعود بالخير ليس على الجميع (ليس «للصالح العا»)، أو، على الأقل، ليس على الجميع بالتساوي؟ وعلى أية حال فإن أغلبية الشعب البسيط استلمت القليل أو لم تستلم شيئا، بل فقدت الكثير (فإن مئات الآلاف وقعت تحت نير القنانة، وتعرض عدد أكبر من الناس لزيادة الضرائب والمستقطعات والتجنيد الإجباري وأعمال السخرة وهلمجرا).

ومن أبرز سمات بطرس الأكبر كحاكم مطلق مساهمته الشخصية الهائلة في إدارة الدولة وجهوده وأعماله السياسية الخارجية والعسكرية وإشراك الكثير من الرجال الموهوبين القديرين فيها من الإداريين والقادة العسكريين والدبلوماسيين ومدراء مختلف المؤسسات الانتاجية المتضلعين في معرفة الأمور. كان يبحث عنهم دون كلل ويربيهم ويوجههم. وبديهي أن حدة طباعه وتسلطه قد تركا أثرا في علاقاته مع أنصاره وأشياعه. ورغم ديمقراطيته وتواضعه الهزلى (عندما يتوسل الى «الامير الحاكم « روكودانوفسكى ويكتب له او للاميرال ابراكسينفي مسألة ما باسم الطبال الحقير بطرس ميخ.ائيلوف) فهو لا يطيق اعتراضا من احد عندما يتخذ القرار, ويشتاط غضبا لاتفه الاسباب. وكان يهشاه حتى انصاره واصدقاؤه, مع أنهم كانوا، في حالات أهدأ، يعترضون عليه ويناقشون المسائل الهامة و يجادلونه. وتجلى ذلك في تقلب أطواره واستحالة التكهن

بتصرفه في المآدب والولائم وحفلات الرقص. فقد كشف بطرس هنا أيضا عن تسلطه، بأشكال حادة منفلتة أحيانا، حيث كان يقدم على نكات وتصرفات خشنة ومهينة. واحتفظ شهود العيان من معاصريه بالكثير من تلك النكات في مفكراتهم ومذاكراتهم.

«الجميع يرتجفون أمامه ويذعنون له بصمت». بهذه الكلمات تحدث بوشكين عن طبيعة بطرس القيصر والإنسان. وكان بطرس واثقا من أن تصرفاته صحيحة تنفع كل الناس والدولة جمعاء. وكان واثقا بنفس القدر من أن «كل الفضائل» تصدر عن القيصر، عنه شخصيا. ولذا فإن نظرته واراداته يجب أن تصلا إلى الجميع وتبلغا كل أطراف الدولة وكل قطاعات الإدارة وتدركا نفوس وأماني الرعية. فبدون رعايته وتوجيهاته تتدهور كل الأمور وتنقلب شر منقلب. وهذا هو السبب في كثرة المراسيم والإيعازات التي كتبها بنفسه (وهي الأهم) أو التي راجعها وحررها وعدلها بعد أن كتبها مساعدوه. فيجب أن يرشد كل رعاياه «كالأطفال» في كل الأمور صغيرها وكبيرها، من المهد إلى اللحد. وكان يرشدهم في كيفية جنى القمح وبناء المنازل ونصب آلافران وعقد القران والزواج ودفن الموتى وهلمجرا. وقد وضع قائمة تفصيلية لدرجات العقوبة. وكان للأصول والقواعد في كل ميادين الحياة وإشاعة البيروقراطية في إدارتها في عهد بطرس، وبفضل منزلته لدرجة كبيرة، تأثير بالغ في واقع الحياة في روسيا لاحقا.

بديهي أن حياة بطرس الأكبر وأعماله ليست ثورة، وهو نفسه ليس ثوريا متربعا على العرش، كما تصور سولوفييت في حينه. ويجانب الصواب كذلك تلميذه كلوتشيفسكي عندما يقول إن إصلاحات بطرس هي نضال الحاكم المستبد ضد الشعب وتحجره. فقد اراد القيصر، على حد تعبير هذا المؤرخ، «أن يجعل العبد يعمل بوعي وحرية ويبقى عبدا مع ذلك. فالفعل المشترك للاستبداد والحرية، للتنوير والعبودية، هو اللغز السياسي الذي استمر حله عندنا قرنين كاملين، من عهد بطرس،

ولم يحل حتى الآن». لقد انعكست في هذين الرأيين المتطرفين، في كل منهما على طريقته الخاصة، الحصيلة المتناقضة لنشاط بطرس وسمات عصره. فهي رغم تعقدها وتعارضها تكشف بوضوح عن نمو روسيا وتعززها. وحظي حاكمها بامتنان الأحفاد، حتى الذين لا يؤيدونه في كل شيء، حظي بامتنانهم لجهوده العسيرة المتواصلة من أجل إعلاء مجد روسيا. وحتى كلوتشيفسكي ذلك المؤرخ القيم الذي يتحلى بالحكمة والفطنة والظرافة ويلوم بطرس أحيانا (بحق وبغير حق) يضفر له، بأسلوبه الخاص، أكليلا من الغار:

ـ السلطة المطلقة بحد ذاتها مكروهة كمبدأ سياسي، والشعور الوطني لا يعترف بها إطلاقا، لكنه يسكت على شخص تقترن فيه هذه القوة غير العادية مع التفاني ونكران الذات، حيث يتقدم الحاكم المطلق بلا كلل ويقتحم من أجل الصالح العام و يخاطر بالارتطام بعوائق منيعة، بل وحتى بالقضية التي نذر لها نفسه.

واجهة قصر في قرية كولومنسكويه على بعد أكثر من سبعة كليومترات عن موسكو، في هذا القصر ولد بطرس الأكبر.
نقش للفنان غيلفيردينغ، عام ١٧٦٣.

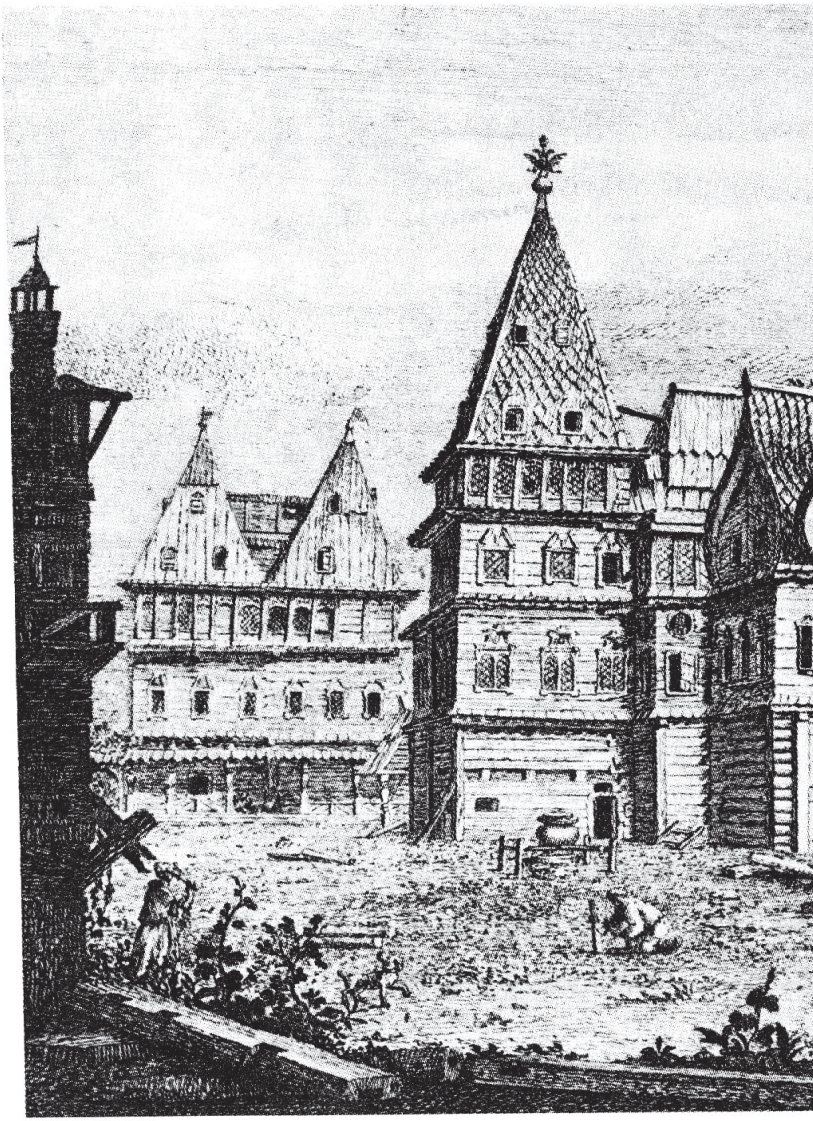

القيصر الكسي ميخائيلوفيتش، نقش أعده فورتمان عام ١٧٣٩، عن أصل روسي قديم لأجل الطبعة الثانية من قوانين الكسي ميخائيلوفيتش.

صوفيا الكسيفنا، نقش أعده افاناسيف عن أصل رسمه تاراسيفيتش في ١٦٨٩.

صورتان نصفيتان لايفان الكسييفيتش وأخيه بطرس نقشهما لارميسين على لوحة خشبية واحدة في باريس ١٦٨٥.

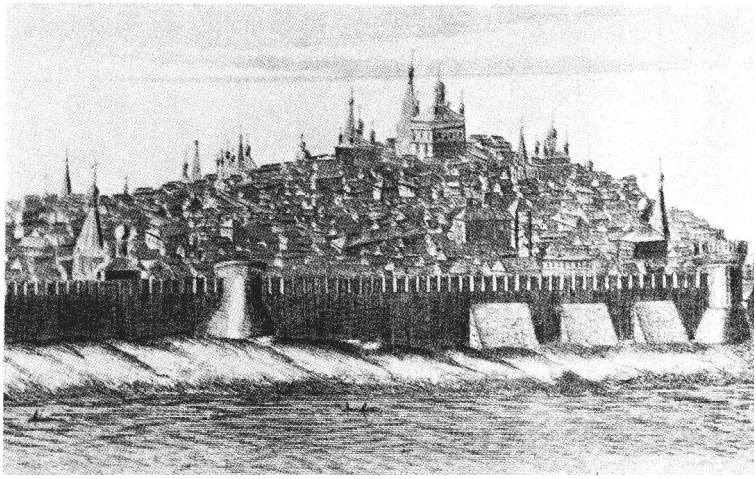

منظر موسكو، نقش أعده بيكار في ١٧١٥ .

صورة فينوس

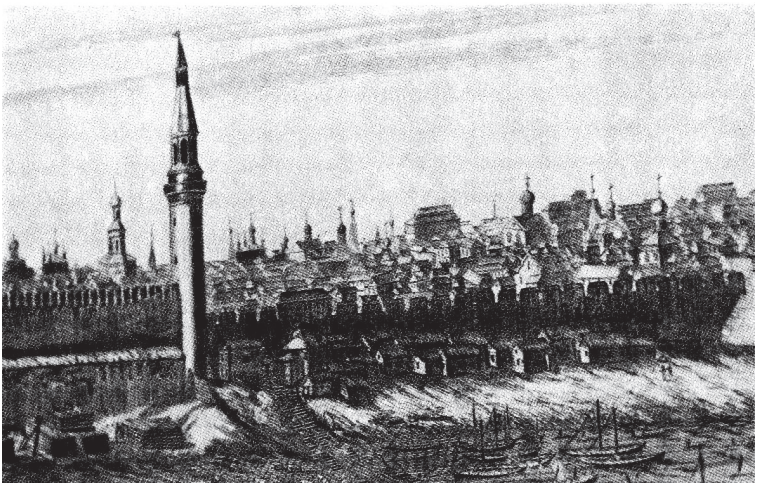

فرانتس ليفورت

نقش عن صورة
بفرشاة أرغونوف

فاسيلي غوليتسين. نقش أعده تاراسيفيتش في ١٦٨٩.

بطرس الأكبر. نقش أعده فايتورن في ١٦٩٨.

صورة لبطرس الأكبر وزوجته يكاترينا، في بزتين فرنسيتين، آيار (مايو) ١٧١٧، أثناء تواجد بطرس الأكبر في باريس.

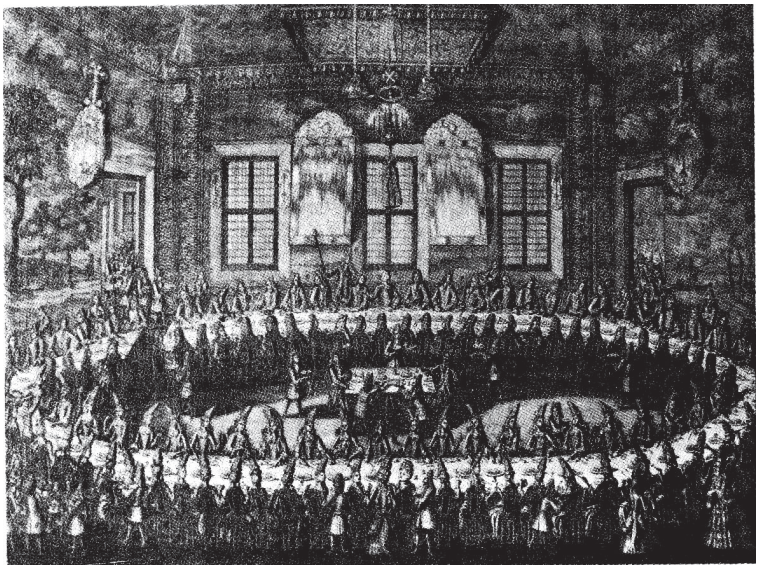

مأدبة قران بطرس الأكبر ويكاترينا في ١٧١٤، نقش في نهاية العقد الثاني من القرن الثامن عشر.

ألكسي بتروفيتش
نقش

مازيبا. نقش ١٧٩٦.

بطرس الأكبر على حصان، طبع هذا النقش في هولندة من قبل آلار، وقدم إلى بطرس الأكبر في روسيا فقدره حق قدره، استخدم النقش مرتين في سك نوطين تكريما للنصر في معركة بولتافا ومعركة كاليش.

بطرس الأكبر في شبابه، مقطع من لوحة، القرن الثامن عشر

سيدة وفارس في ثياب أوربية وفلاحان. مقطع من لوحة، القرن الثامن عشر

لوحة من القرن الثامن عشر: «حلاق يهم بحلق لحية أحد المنشقين».

مينشيكوف. نقش أعده سيموف في لندن بعد عام ١٧٠٩.

بطرس الأكبر. خلافا لصور استعراضية كثيرة رسمت هذه الصورة بطريقة واقعية، وتعتبر الصورة الأصدق، نقشها أفاناسيف نقلا عن أصل رسمه كارافاك في ١٧١٦.